سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 11، العدد 02 – 20 ديسمبر 2021

Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V :11, N° :02 – 20 Décembre 2021

اليومي ومعنى الحياة، في ظلّ الرؤية الحداثية إلى العالم عند زيجمونت باومان

The daily, and the meaning of life, under the world's modernist vision By Zygmunt Bauman

أمين طالبي*

جامعة سطيف 2، الجزائر(talbiaminephilo@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/09/01 ؛ تاريخ القبول : 2021/11/26 ؛ تاريخ النشر : 20 /12/ 2021

الملخص

تروم هذه الدّراسَة البحثية إلى مُحاولَة النَّظَر في تحوّلات معنى الحياة ضمن الرؤية الحداثية إلى العالم، وسيطرة ما يُسمّيه زيجمونت باومن بـ "أنموذج السّيولَة"؛ فليس ثمَّة خِلافٌ أنَّ الإنسان المعاصِر بات – بهذا القَدر أو ذاك– يعيش في ظلّ سيطرة أنموذج الحداثَة، هذا البراديغم الذي تشكَّل أسَّاسًا من تفاؤُلات عصر الأنوار، قبل أن يظهر–فيما بعد– بمآلاتٍ إنحطاطية. هذا ما أدى بالعديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع لمراجعة قيم الحداثة ومُرتكزاتها نقدا وتقويما، تماما كما فعل زيجمونت باومن، إذ طرح ما يُعرف بأنموذج السيولة كوصف للحالة التي آل إليها الإنسان المعاصر. ومن ثَمَّ، وصف للتّحولات الظّاهرة مُستوى نطاق الحداثة، كالحياة، والعلاقات الإنسانية والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، الحياة السائلة، الإنسان المعاصر.

Abstract

This research study aims to look at the changes of the meaning of life under the modernist vision of the world and the control of what Zygmunt Bauman called "the liquidity paradigm" There's no disagreement that the modern man has become, in a way or another, to live under the control of the modernist paradigm that was formed basically from the optimists of the age of enlightenment before it turned out to be a disappointment That's what led many philosophers and social scientist to review the values of modernity and its foundation with criticism and evaluation like what did Zygmunt Bauman exactly, since he introduced what is known as liquidity paradigm as a description of the state that the modern man has become, then a description of the apparent transformations at the level of modernity such as life, human relationships and society.

Keywords : Zygmunt Bauman; liquid modernity; liquid life; modern man.

* **الباحث المرسل:**

1.مقدمة:

ليس ثمّة خلاف أن الإنسان المعاصر بات –بهذا القدَر أو ذاك– يعيش ضمن ما أفرزه أنموذَج الحداثَة من تحول على مُستوى التَّفكير والسُّلوك بعد نفي الإنسان للمقدَّس، عبر نزع الهالة السحريّة عن العالم. ومن ثمَّ، اعتماد المعرفة العلميّة بديلا للتَّفكير الخُرافي الأسطوري. لهذا، يصحّ القول أنَّ الحداثَة حالة تُعبر عن المجتمعات الحديثة التي تختلف جذريا عن حالة المجتمعات الكلاسيكية، بل إنَّ الحداثة تمثّل عند البعض الأنموذج النَّهائي للتَّقدم البشري على مُستويات مُختلفة كالسياسة، العِلم، التَّنظيم الاجتماعي، وحتى على مُستوى السُّلوك الإنساني .

لهذا، يذهب البعض لجعل الحداثَة أسمى ما وصل إليه الإنسان الغربي، غير أنَّ الحدَاثَة لم توفي بالوعُود التي قطعَتها ولا بالآمال التي تفاءَلَت بها، بل انقلبت تلك الشِّعارات إلى نقيضها. هذا بالتَّحديد ما جَعَل الكثير يتوجَّه إلى الحداثَة نقدًا وتقويمًا، تماما كما فعَلَ زيجمونت باومن، إذ يصف الحداثَة بأنَّها سائِلَة، بذاك المعنى الذي يجعلُها تُؤَسِّس لأزمَة على المجتمع، وعلى حياة الإنسان المعاصر، بل جَعَلت هذا الأخير مُجرَّدَ مُستهلكٍ محمُوم وضحيَّة لأنظمة التَّنظيم والضَّبط والمراقَبَة.

يُشَّخِّصُ زيجمونت باومن، حال الأزمة التي آلت إليها الحدَاثَة، وذلك عن طريق تشخيص حياة الإنسان ضمن أنموذَج الحداثَة السَّائلَة، ويتساءَل عن التَّحولات التي طَرَأت على حياة الإنسان، وعلى اليومي، ناهيك عن الفضَاء الاجتماعي بما هو منظُومَة تُشكِّل وتُنَظِّم حياةَ الأفرَاد. وعلينَا أن نجرُؤَ –في ثنايَا هذا الموضوع– على مُساءَلَة التَّساؤُل نفسه عن مدَى التَّحوّلات التي ظهرت على مُستوى الحَدَاثَة. فيمَا تتمثَّل الأزمة اليوميَّة والتَّوعُّكات الحياتيَّة التي ظهرت عليها الحداثَة حسب زيجمونت باومن؟ وإلى أي مَدَى أثَّرَت الحياة السَّائلَة على الإنسان المعاصر؟

1. الحداثَة بين المقاربة المفاهميّة والتَّشكُّلات التَّاريخية :

من المعلُومِ أنَّ الحداثَة من حيث هي رؤية إلى العالم؛ هي أيضًا، تحوّل على مُستوى التّفكير والسُّلُوك الإنساني، بعدَ نفي الإنساني للمقدَّس واعتماده على المعرفة العلميّة أداة للتفكير. من هُنا، تقوم فكرة الحدَاثَة على التَّأكيد أنَّ الإنسان هو المشرِّع الوحيد. لهذا، هناك علاقَة تتوطَّد أكثَر فأكثر بين الإنسان، واليومي، والحياة الاجتماعيّة ككُل، ضمن ما يُعرَف بـ "الرؤيَة الحداثيّة للعالَم."

وعادَة ما تتم مُقاربَة الحداثَة بانتصار العَقل، فالعقل وحده هو الذي يعقد الصّلَة بين الفعل الإنساني ونظام العالَم، وعلى العقل تقُوم الحرية والسَّعادَة الشَّخصيّة وإشباع الحاجَات (تورين، 1998، صفحة 19)، وليس ثمّة خلاف أنَّ الإنسان المعاصر بات يعيش غمار الحداثَة وتحولاتها. بذاك القدر الذي أصبحت الحداثة تؤثر في تشكيل الإنسان المعاصر على شتَّى المستويات، كالتَّفكير، والسُّلُوك، والعلاقات الاجتماعيّة. لكن، وقبل تناول مآثر الحداثة على الإنسان و/أو المجتمع المعاصر، وجَب البحث في الحداثة مفاهيمًا، وأيضًا، تاريخًا حتى يسهُل تناول الموضوع إشكالا واستدلالا.

1.1 الحداثة، بحث في المفاهيم والدَّلالات :

ينبغي دائما في موضوع الحداثَة، أن نفرّق بين الحداثة والتَّحديث فـ Moderneمفهوم منقُولٌ من الأصل اللّاتيني Modernus الدَّال على الواقع الجديد أو الحالي أو الرَّاهن أكان ظرفًا أم رأيًا، والمشتّق من التَّركيب بين الصّدر –modo الدَّال على عدم التَّراخي؛ و hodiernus الدال على اليومي. لهذا، نجد المفهوم Le moderne فلسفيا يدلّ على وصف المفكّرين المسيحيين [moderni]وتمييزهم عن المفكّرين القُدامى من أهل الشّرك اليونان والرومان .(النقاري، 2018، صفحة 190)

في المقابل نجد أنَّ مفهوم (Modernisme) يُشير إلى "الأسلُوب الذي يتميّز به العصر الحالي والرَّاهن والوقتي في أحدثِ تطوُّراته وتجديداته ."(النقاري، 2018، صفحة 191)

مما سبق يظهر جليًا مدى الفرق بين مفهُومي الحديث، والحداثة، باعتبار المفهوم الأول –أي الحديث– يُشير عادَة إلى التميّيز بين المرحلة المسيحيّة في مُقابلِ مرحلَة القُدامَى من أهل الشرك والخُرافات؛ أمّا الحداثة، فهي رؤية Vision وأسلُوب يُميّز الحياة الإنسانيّة في أحدث التطّورات على مُختلف الميادين. ويحتلّ موضوع الحداثَة موقعًا فكريًّا بارزًا في عالمنا المعاصر، باعتبارها –بوجهٍ عامّ– وصفٌ لحالة المجتمعات الغربيَّة منذ عصر النهضة Renaissance ويشمُل التَّرشيد الاقتصادي، والدّيمقراطيّة السياسيّة، والعقلانيّة كنمط للتّفكير في مُقابل التَّفكير الخُرافي والكنَسي الذي كان سائدًا في القرون الوسطى وما قبلَهَا .

وقد يذهب البعض في صوغ مفهُومٍ للحداثَة إلى مُقاربتها بالعقلانيّة (تورين، 1998، صفحة 31) Rationalisationكون الحداثة كواقع وكمفهُوم ارتبط ارتباطا وثيقا بالعقلنَة، والتَّخلّي عن إحداها هو رفض للأخرى، بل إنَّ الكثير يُفضّل اختزال الحداثَة في العَقلنَة Rationalisme وفي مُقابل ذلك نجد المفكّر عبد الوهاب المسيري يرى أن تعريف الحداثَة بأنَّها استخدام العقل والتَّقنية في التَّعامُل مع الواقع هو تعريف يُسقِط البُعد المعرفي الكُلّي والنَّهائي، ولتعريف أدَّق

للحداثَة لابدّ من استعادَة هذا البُعد المعرفي، فنكتشف أنَّ الحداثَة ليست مُجرّد استخدام للعقل؛ إنَّما استخدامها خارج نطاق إنساني وأخلاقي. لهذا، يذهب المسيري إلى تعريف أدَّق للحداثَة بالقول أنَّها « استخدام للعقل والعلم والتَّقنيّة، المنفصلين عن الواقع «.(المسيري، 2009، الصفحات 190-191)

وعليه، يتضّح مما سبق، مدى صُعُوبَة وضع مفهومٍ جامع مانع للحدَاثَة بل الأكثر من ذلك أنَّ الحداثَة وقعت فيما يُسمّيه طه عبد الرحمن ، بـ آفّة "تهويل المفهُوم" وهذا التَّهويل جعل من الحداثَة كائن عجيب له حريّة التَّصرف في الحي والشيء تصرّف الإله القادِر، وهذا التَّوصيف في حقيقة الأمر وصف غير حداثي. ولهذا، فتعريف الحداثة بحسب طه عبد الرحمن، يكون بالتَّفريق بين واقع الحداثَة؛ وروح الحداثَة. حيث أنَّ الأول –أي واقع الحداثة– هو تطبيقاتها الغربية وهو إمكان لعدّة إمكانات ممكنة؛ أمَّا الثاني – روح الحداثَة– (الرحمن، 2007 ، صفحة 20) فهو الجوهر الكامن الذي بني عليه الغرب حضارته. وبناءً على هذا، فالحداثَة « عبارَة عَن نُهُوض الأمَّة كائنة ما كانت بواجبات واحد من أزمنة التَّاريخ الإنساني بما يجعلها تختصّ بهذا الزمن من دون غيرها، وتتحمَّل مسؤولية المضي به إلى غايته في تكميل الإنسانيّة. (الرحمن، 2007 ، صفحة 20) «

2.1 اللّحظة التاريخية لتشّكُل الحداثَة :

لعلّه من المفيد الانتباه، إلى أنَّ الحداثَة ليست حدَث تعيشُه المجتمعات المعاصرة، إنَّما هي سلسلة من التَّطورات والتَّراكُمات التَّاريخية التي أعادَت تشكيل المجتمعات وصوغ إنسان يُسمي نفسه مُعاصرا وحداثيًا. لهذا، من الخطأ تناول موضُوع الحداثَة بمعزل عن ظُرُوف تشّكُلها وقيامها .

وإنَّ كونَ الحَدَاثَة يُراد لها –عَادَة– أن تُحيل –في آن واحِد– إلى العَقل، كفكر قائِم على المعرفة العقليّة؛ والممارسة و/أو المساءَلَة النَّقديّة تمحيصًا وتعليلاً؛ والحُريَّة، كرُشدٍ بلا وصاية واستقلال دون تبيعيّة؛ والتَّقدُّم، كصيرورَة دائمَة من النَّمو والازدهار. (الكور، 2013، صفحة 28) وهذا ما يُلاحَظ عادَة لدى أدعيَاء الحَدَاثَة تعاقُلاً وتحرُرًا وتَقدُّمَا (الكور، 2013، صفحة 29). ولعلَّ تلازُم الحداثَة مع العقلانيّة، يفرض علينَا البحث في قيام هذه الأخيرة. وعادَة ما يُؤصَّل لقيام العقلانية الغربيَّة إلى الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (René Descartes 1650/1596 (الذي عَمِلَ على وضع الذَّات Le sujet مُقابل الموضُوع Objet’لكثنائيَّة حادَّة بين الذَّات العارِفَة متمثّلة في الإنسان من جهة؛ والموضُوع المَدروُس من جهة أخرى، مُتمثلا في الطبيعَة، وهذا ما يتعارَض شكلاً ومضمُونًا مع ما كان سائدًا من قَبل من تفكيرٍ أسطُوري ولاهُوتي. (بومنير، 2010، صفحة 23)

ومن أجل ذلك، تتجلَّى العقلانيَّة بمحاولتها المُتكرّرة السيطرَة على الطَّبيعَة وذلك عبر نزع الهالَة السّحرية عن العالَم، وإفراغ الكون من قَداسَته، ومن ثَمَّ، الاعتماد على المعرفَة العقليَّة. وقَد بدأت معالم هذه السيطَرَة مع ديكارت مُتمثلة في العقلانيَّة وذلك عبر جعل الذَّات الإنسانيَّة، الواعيَّة بقوتهَا، في مُواجَهَة العالَم الخارجي، الذي يُخضَعُ للغزو والسَّيطَرَة. لهذا، ينطلق ديكارت من الكُوجيتُو Le Cogitoالقائم على فكرة " أنا أفكّر إذا أنا وجود" كتعبير وتصريح على أنَّ الذَّات أساسًا ومصدَرًا للمعرفَة (بومنير، 2010، صفحة 23) هذه المعرفة التي نستعملهَا بالطَّريقَة نفسها في جميع ما تصلح له من أعمال، والأدهى والأمر، أن نجعل من أنفسنا سَادَةً على الطَّبيعَة مَالكيهَا (ديكارت، 1991، صفحة 82) .

تظهر جليا البدايات الأولى لتشَّكُل الحداثَة عبر تشييد العقلانيّة القائمَة أسَاسًا على فكرة السَّيطَرة، وذلك بصياغَة قواعد الطبيعَة وإخضاعها للقياس، ومن ثمَّ، تسخير هذه القوانين لخدمة الإنسان، والخروج من الركُود العلمي والفكري .

وفكرَة السيطَرة على الطبيعَة، عبر العقلانيَّة كأحد ثوابت الحدَاثَة الغربيَّة، تجلَّت أيضا معالم هذه السَّيطرَة في ما طرحَة بيكون (1561/1626 Francis Bacon) حيث أنَّ فلسفة ديكارت لم تكن وحدها المؤثّر والموجهّة لفكرة السيطرَة على الطَّبيعَة، ورغم الاختلاف بين بيكون وديكارت في الاتجاه الفلسفي وأصل المعرفة، إلا أنهما يشتركان ويتَّفقان في فكرة ضرورة توجّه الإنسان إلى معرفَة الطَّبيعَة من خلال اكتشاف قوانينها، ومن ثمَّ، استعمال وتوجيه هذه المعرفَة إلى تحقيق و/أو تسليط السّيادَة على الطبيعَة والتَّحكُم فيها، وذلك بالتركيز أكثر على خدمة الإنسان. (بومنير، 2010، صفحة 25)

ولهذا، يُمكننا اعتبار فلسَفة بيكُون دعوة صريحَة إلى السيطرَة على الطّبيعَة، خاصَّة في طرحها للمنهج التَّجريبي، والتَّوجّه إلى الطبيعَة تقنينا وسيطرَة. رغم أنَّ هذه السيطرَة لم تستهدف فقط الطبيعَة فحسب، بل استهدفت الإنسان .(بومنير، 2010، صفحة 19)

إلى جانب ذلك، عادَة ما يُؤرَّخ لتَّشكُل الحداثَة، من فلسَفَة الأنوار وتفاؤُلها السَّاذَج، فليس ثمَّة خلاف، أنَّ فلسفة الأنوار قد قامت على مجمُوعَة من الرَّكائز كالعقلانية، والتَّقدُّم، والحُريَّة، هذا الثّالوث عمل في القرن الثامن عشر على تشكِيلِ المشروع الحضاري والثَّقافي الغربي، وبشَّرَ بتحرير الإنسان من وضعه السلبي. عُمُومًا يهدف تفاؤُل الأنوار إلى نزع الهالَة السَّحريَّة عن العالم وتحطيم الأساطير، وعليه، فالأنوار تتّسم بالعقلانيَّة والتَّجريبيَّة، وفي الوقت نفسه هي وريثَة كل من ديكارت

ولوكLocke ، وقد حَمَل الأنوار على عاتقه فكرتي الاستقلالية والغائية الإنسانيَّة لأفعالنا الكونيَّة. (تودوروف، 2007، الصفحات 9-10)

ولعلَّ أول سمة تكوينيَّة لفلسفة الأنوار، تتمثَّل في جعلنَا نُفضِّل ما نختارُه ونُقرّر بأنفُسنَا على ما تفرضه علينا سُلطَة خارجيّة عن إرادَتنَا، وعدَم الخُضُوع لكل وصايا

مفروضَة على البَشَر خارج إراداتهم (تودوروف، 2007، صفحة 10)، لهذا، جاء شعار الأنوار كما طرحَه الفيلسوف الألماني كانط (1724-1804 Kant (في مقالة بعُنوان، ما الأنوار؟ إذ يقول « أنَّ بُلوغ الأنوار، هو خروج الإنسان من القُصُور الذي هو مسؤولٌ عنه، والذي يعني عجز الإنسان عن استعمال عقله دون إرشَاد الغير، وإنَّ المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس عيبًا في العقل، بل نُقصًا في العَزم والشجاعَة في استعماله دون إرشاد الغير، تجرَّأ أن تعرف، كُن جريئًا في استعمال عقلك، فذاك هو شعار الأنوار (كانط، 2005، صفحة 85) ».

من خلال هذا، يمكن القول فعلا، أنَّ الأنوار -بما في ذلك الحداثة- هي الحريَّة الكاملة في التَّفكير، والمُساءَلَة، والنَّقد والتَّشكيك، دون أن يكُون هناك تقديس لأية عقيدَة أو مُؤسسّة. لهذا، يُقال عادَة أنَّ الأنوار أفرزَ "عالمًا دونَ أوهام "

2 توعُّك الحداثَة، وتمظهرات أنموذج السيولَة :

قَد لا نختلف في كون الحداثَة قَد عملت -بهذا القدر أو ذاك-على تحرير الإنسان من قيود وأغلال الخرافات واللاهُوت، ونقلت العقل من الخضُوع والانقياد إلى التَّفكير والتَّحرر. لكن، هذا لا يُنكر ظهُور أزمة على مُستوى الحدَاثَة، وتوعُّك على مُستوى مُرتكزاتها المُتمثّلة أساسًا في العقلانيَّة والحريَّة والتَّقدّم. هذا التوعُك في قلب الحداثَة، جعل العديد من الفلاسفة، بمختلف ألوانهم، وعُلماء الاجتماع، يُراجعُون قيَم الحداثَة فعلى غرار إدغار موران(1921) Edgar Morin ، وجيل ليبوفتسكي Gilles (1944) Lipovetsky، وألان تورين(1925) Alain Tourain ، نجد السوسيولوجي البولندي زيجمونت بَاوْمان (1971-2017) Zygmunt Bauman الذي عمل على نقد الحداثَة ومآلاتها على المجتمع والإنسان المُعاصر، واصفا إياها بـ"الحداثَة السائلَة "

1.2 الحداثَة السّائلَة وتجلياتُها على الإنسان المعاصر :

يطرح زيجمونت باومان، فكرة الحداثَة السَّائلَة كوصف، –أو ربما قَدح– للحالَة المُزرية التي ظهَرَت فيها الحداثَة، في صيغتها الحياتيَّة، ويُحاول بَاوْمان أن ينتقل من فكرة الحداثَة الصَّلبَة القائمة أساسا على نفي الغيب والهيمنة على العالم / الطَّبيعَة. ومن ثَمَّ، السَّعي لليقين المادِّي؛ إلى أنموذج الحداثَة السائلَة القائمَة على منطق الاستهلاك، وتدهور العلاقات. عُمُومَا، يتمحور فكر باومان حول حال الإنسان والإنسانيَّة في تقلُّبها بين أطوار الحداثَة (باومان، 2016، صفحة 12). وما يجعل الحداثَة تقع في صدمَة إثرَ تحولهَا من الصَّلابَة إلى حالَة السيولَة ، هو تغييرها لمقوِّمات العيش الإنساني، رغم أنَّ الصَّلابَة والسُّيُولَة حالتان مُتلازِمتَان تحكمها رابطة جدليَّة، كتلك التي عبَّر عنها فرنسوا ليوتار (1924–1998) F. Lyotard بقوله أنَّ المرء لا يستطيع أن يكُون من أهل الحداثَة، من دُون أن يكون من أهل ما بعد الحدَاثَة! فجوهر الحداثَة الصَّلبة هي التَّحكُم والسيطَرة؛ في حينَ أنَّ مهمَّة الحداثَة في مرحَلَة السيولَة يتمثَّل في ضمان التَّحرر
من المستقبل (باومان، 2016، صفحة 28.). ودرء الخوف من الأشياء الثَّابتة المتماسكة، وحالة الخوف هذه – والتي أفرَد لها باومان كتابا مُستقِلاً فيما بعد– (باومان، الخوف السَّائل، 2017.) يواجهها الفرد بحالات نفسيَّة، كالاستغراق في اللَّحظَة، والتَّمحوُر حول اللَّذَة والسُلوك الاستهلاكي (باومان، الخوف السَّائل، 2017.، صفحة 12) .

لهذا، يظهر التَّنوير، والذي يُعدُّ جوهرًا مُلازمًا للحداثَة، بمآلات انحطاطيَّة وآمالٍ مُرتدَّة إلى نقيضها، وذلك بفرض نمط خاص للإنسان المعاصر ، وهو العيش في عالم حديث سائل، وما الحداثَة السائلَة سوى كشفٌ مُبكر من باومان لمعالم الأنمُوذج الحداثي، كنمُوذج اجتماعي حَلَّ –بل سيطَر– على الإنسان المعاصر. (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 13) وارتدَّت حياته اليوميَّة إلى مُجرَّد استهلاك وتزايُد التَّبادُلات وكثافَة رؤوس الأموال والسّلع الاستهلاكيَّة، وأدوات التَّحَكُّم الاجتماعي ذلك أنَّ مراكز الحداثَة استحوذت على الأنظمة المُجتمعيَّة وسيطرَت على العالَم .(تورين، 1998، الصفحات 129–130)

سعي الحداثة إلى تخليص الإنسان من الطابع السحري والخُرافي، ما فتئ لينقلب إلى كابُوسٍ يؤرِّق الإنسان. وأصبح هذا الأخير واقع في الحُريَّة التي تحاول دائمًا أن تستهدف "المُنتِج المثالي" والثقافَة التي تروِّجُها الأسواق لتستهدف "المستهلك المثالي" وكل منهما يُركِّز على عاملٍ من عوامل الحريَّة (باومان، الحداثة السائلة، 2016، صفحة 32)، وترنوا السُّيولة التي تتسم بها أزمتنا إلى تفكيك النُّظُم، وانتشار ما يُسمِّيه باومان بـ "حالة اللايقين" تجمع بين الإحساس بالجهل، والعَجز، ناهيك عن الإحساس بالخوف وتلاشي الاستقرار. (باومان، الحداثة السائلة، 2016، صفحة 33)

يبدو جليًّا مدَى التَّمظهُرات السّلبيَّة التي ظهرَت بها الحداثَة في عصر السيولَة، من خلال فرض أنماط أخرى على الإنسان المعاصِر، فرض نمط الاستهلاك و"ديانة السُّوق"، تحوَّل من خلالها الإنسان المعاصِر إلى إنسان سائل يعيش في حالة من اللاّقين، ضمن مجتمع حديث سائل ومائع .

والأبعد من ذلك، أن القيم التي حملتها وتفاءَلت بها الحداثَة، لم تلبث إلاَّ أن تنقلب إلى قيَم أخرى، ويظهر ذلك بوضُوح في قول باومان « إنَّ القيَم الكُبرى التي بدأت بها الحداثَة حلَّت محلّها قيم الإشباع الفوري والسَّعَادَة الفرديَّة، والمنتج يتحوَّل إلى نفايات، وتتراوَح الأشياء والعلاقَات بين حياة الاستهلاك واستغناء وموت.» (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 17) ومعنى ذلك أنَّ الحداثَة وقيمها المتمثلة في الحرية، العقلانية، التَّقدّم، قد تحولَّت في عصر السيولة – بما هو أنموج يعبّر عن رؤية و/أو تصور اتجاه العالَم– إلى قيم مأزومَة غايتها السعادَة الآنيَّة .

ومن ثَمَّ، يكوُن الخوف، هو الهاجس الذي يَشغَل المرء في زمن الحداثَة السائلَة وأزماتها، الخَوف من الفَشَل في اللَّحاق بالمُستَجَدَّات المُتسارعَة، ومن ثَمَّ، فقدان اللحظة التي يمكن أن يعيشها في مُجتمع حديث سائِل! مجتمع لا استقرار فيه تتغيَّر فيه الظّروف بسرعَة رهيبَة. وبهذا، تظهر سيُولَة الحَيَاة – أو قُل الحياة السَّائلَة– كإحدَى تمظهرات لسُيولَة المجتمع. بحيث يكون هذا النَّمط من الحياة قائمًا على التَّحوّل المُتسارِع. (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 21) كسلسة من البدايات الجديدة، ولا يُمكن –بأي حال من الأحوال– أن تتوقَّف الحياة السَّائلَة عن الحرَكَة الدَّائبَة، بل تعكف على التَّحديث اليومي والآني، وذلك بتجريد نفسها يوميًّا من السِّمَات التي سَبَق أن مرَّت عليهَا. (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 23)

وما يُميّز الحياة السَّائلَة هو "التَّدمير الخَلاَّق" إذ يستهدف هذا التَّدمير عدَّة مَنظُومات بما فيها الإنسان، الذي يَحيَا هذه الحياة ضمن مُجتمعٍ القيَم الآنيَّة العابرَة الخاليَّة من الهُموم، لحظات آنيَّة مُتمركزَة على الأثر واللَّذَة وعدَم الاستقرار. حياة قائمَة على فُقدَان التَّوازُن، وسُرعة الانتشار والتَّجدد عبرَ الارتحال الدَّائِم .(باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 24)

2.2 مُتلازِمات الحياة السَّائلَة وحركية الإنسانيَّة الدَّائبَة :

يبدو أنَّ الحياة السَّائلَة ليست سوى حياةً استهلاكيَّة، قائمَة على الصَّيرورَة الاستهلاكيَّة عبر جعل العالَم بأسره موضُوعًا للاستهلاك، بحيث يتحوَّل الاستهلاك والمُستهلكين قُطبان يدور حولهُمَا مجتمع المستهلكين كل يوم فـ « الحياة السَّائلَة تُضفي على العالَم، بل على كلّ من العالَم، وليس بجزء من النَّفس قيمَة أداتيّة بالأساس (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 33) «.

معنى ذلك، أنَّ القيمة الأداتيّة تغدو مُوضَة الإنسان والحياة السَّائلَة. وبهذا، يكون المجتمع الحديث السَّائل بمثابَة إعلان عن تراجع فكرة "المجتمع الفاضِل" ذلك أنَّ الحياة السّائلَة لا تسيير بمنطق الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي، إنَّما بدفع المجتمع إلى التَّخلِّي التَّدريجي عن كُل القيم عدا قيم الأمن والمراقبَة التي تعمل على حمايَة الأفراد. ناهيك عن دفع المجتمع إلى حالَة من الخوف من كلّ شيء، بما في ذلك انتشار المخَاوف البيئيَّة الجديدة التي ترجع –في الأصل– إلى سُوء استغلال المواد على هذا الكوكب، والأبعد من ذلك، طُغيان الأنانيَّة الفردَّية كأبرز تجليَّات للحياة السّائلَة. وهذه الأنانيَّة مفادُها التَّركيز على الذَّاتي فحسب وعدم الاكتراث بظروف الحياة المشتركَة الاجتماعيَّة، حيث يكون أقصى طُموح للمرء ضمن الحياة السَّائلَة هو تحقيق السّعادَة، الغاية الظّاهرة الواضحَة والدَّافع الأسمى للحياة الفرديَّة. (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 34)

هذه الحياة الفرديَّة التي تقبض على الإنسان المعاصر في إطار براديغم الحياة السَّائلَة، تتخللَّها نوع من تحوّلات عميقَة تتمثَّل، في كثير من الأحيان، في السيطرة الاجتماعيَّة وكَثرَة أدوات الرَّقابَة، بل سيتحوّل التعليم إلى مجرّد دمج لفئات اجتماعيّة في جماعات، وليس هذا إلاَّ محاولة لإخضاع التعليم للمصالح الشّخصية لتحقيق أكبر عدد ممكن من الرَّقابَة الاجتماعية. (تورين، من أجل علم الاجتماع، 2020، صفحة 180)

ومن خلال ما سبق، يظهر جليًا مَدَى الأنانيَّة المفرطَة التي تلازم الإنسان في المجتمع السَّائل، وحالة الخوف واللاّيقين الذي يُسيطر على معالم الحياة السَّائلَة ، بحيث تتراجع – أو بالأحرى تنقلب– القيم التي لطالما ساهمت في بناء المجتمع وصَقل الإنسان، إلى قيم تنحصر في الذَّاتي والآني. وسيطرة ما يُعرف بأشكال الرّقابة الاجتماعية والمؤسّساتيّة وتوسيع نطاقات السّيطرة. ونجد، حسب زيجمونت باومن، أنَّ تفسيرات ميشيل فوكو (1924–1926) Michel Foucalt الرائعة حول فكرة المراقبَة في المجتمع الحداثي، كمبدأ جديد قابل للتّطبيق على كل المنشآت الاجتماعيّة، بحيث يكون فيها الأشخاص مُسيطر عليهم تحت المراقَبَة عبر السّجون، بيُوت الصّنَاعَة، المستشفيات، المصانع، وحتى بيوت المجانين .(باومان، الحرية، 2013، صفحة 29)

وبهذا، تغدوا الفردانيَّة مُنتجًا للتحَّول المجتمعي الذي يتستَّر خلفَ صُورة انكشاف شخصي، فيفقد المجتمع قُدرته على التَّنظيم وتشكيل الأفعال الإنسانيّة. ذلك أنَّ نشأة الفردانيَّة تُنذر بإضعاف وتداعي وتقطيع الشَّبكَة الكثيفَة للرَّوابط الاجتماعيَّة التي كانت تُؤَطِّر بإحكام حياة الإنسان المعاصر (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 45). وسيكُون الإنسان ضحيَّة لـ"السّرعَة المذهلَة" التي يسير بها العالم، بل سيعجز عن فرض السَّيطرَة على هذا التَّغيير المتنامي الذي يسكُن حياة السُّيولَة،

من هُنا تظهر فكرة التَّقدّم بالنَّسبة لهذا الواقع، مُجرّد تفاؤُل ساذَج يرنوا إلى تحقيق السّعادَة المطلقة الدَّائمَة للجميع، فينقلب التَّقدّم إلى كوابيس وسيطرة حالة الخوف من التَّخلُّف عن مُسايَرَة التغيير (باومان، الحياة السّائلَة، 2016، صفحة 99) .

يمكن القول أنَّ، فكرة التَّقدم وأيضا الحريَّة التي طالما حملتهما الأنوار وتغنَّت بها الحداثَة لم تلبثا – في عصر السيولة– إلاَّ لتنقلبا إلى بُؤس رهيب يغزوا المجتمعات المعاصرة، ويزيد من تعميق فكر السيّطرة خاصَّة مع ظهُور ما يعرف بـ"العقلانية الأداتيَّة Rationalité Instrumentale"التي تفرض نوعا من السّيطرة على الإنسان المعاصر في المجتمعات المتقدمّة صناعيا. (بومنير، 2010، صفحة 99)

والأكثر من ذلك، أدَّت الحياة السَّائلَة إلى اختراق جميع الحدود والنّطاقات باسم "العَولَمة" لتكشف عن ما يُسمّيه كارل بوبر (1902–1994) Karl Popper بفكرة المجتمع المفتوح La Société Ouvertوصارت جميع المجتمعات مفتُوحَة ماديًّا وفكريًّا، هذا الحلم الذي لازم بوبر يُشير – على حدّ تعبير باومن– إلى الإقرار بعدم اكتمال المجتمع، بل يُشير إلى مجتمع عاجز عن تقرير المصير وتحصيل اليقين. وعدم اكتمال هذا الانفتاح سببه الآثار السّلبيّة لـ "العولمة السلبيَّة" القائمة على الانتقاء التَّجاري، ورأس المال، والمراقبة المعلوماتيّة، والعنف، وتفشّي الجريمة، والتَّبعية، وظهُور قوى لا يستطيع الإنسان فهمها ولا السيطرة عليها. (باومان، الأزمنة السّائلة العيش في اللايقين، 2017.، الصفحات 30–31)

في الأخير، يمكننا القول بما لا يدع مجالا للشَّك، أنَّ الحياة في عصر السُّيولَة في تغيير وصيرورَة دائمة لا يمكن اللحاق بها، فينجرف الإنسان خلفها ويحاول دائمًا القبض على مُستَّجدَّات الحياة المائعَة. التي تُحوَّل المرء فيها إلى مُجرّد مُستهلك، ومن ثمَّ، جَعل الاستهلاك بمثابة براديغم أُحادي الخطّ Unilinear Paradigm بتعبير المسيري، كرؤية إلى العالم تتبَّناها كل الشُّعُوب، رؤية قائمة على منطق السِّلع والسُّوق، وسيطرة المادَة (المسيري، 2009، صفحة 22)

3. العَيشُ في اللّايقين وهشاشَة العلاقات الإنسانيَّة :

تستهدف الحداثَة السّائلة مجموعة من الأطر الاجتماعية بما فيها الإنسان المعاصر وروابطه الاجتماعية، فالمجتمع الاستهلاكي لا يقوم إلاَّ بتوليد الديمومَة والصّيرورة المتسارعَة حتى في العواطف والروابط الإنسانيَّة، وسيطرة اللايقين في علاقَة الإنسان بغيره. فالمعلُوم أنَّ العلاقات

وصف عميق يُعبَّر عن مُجتمع مُتلاحِم، لكن، إنسان الحداثَة السَّائلَة ينتقل من وضوح العلاقات الاجتماعية؛ إلى غُموض الصِّلات العابرة. وبهذا الانتقال، تحوَّلَ ما كان يُسمَّى بـ"المجتمع" إلى مجرَّد "تَجَمُّع" فاقد لصلابَة العلاقات ووضُوحها .(باومن، 2016، صفحة 16)

وعليه، تُصبح الحياة الاجتماعيَّة التي كانَ يعيشُها هؤُلاء الأفراد بسعادَة وحيويَّة، حياةً مَحفُوفَة بالمخاطِر والمخاوِف، تكون الرّوابط فيها فضفاضة تمَامًا، وبهذا، لا يُمكن، أو ربما يصعُب، الوُثُوق فيها. ومن ثَمَّ، يصعُب على المرء فهم الآخَر (باومان، الأزمنة السّائلة العيش في اللايقين، 2017.، صفحة 46.). هذا بالتَّحديد ما يُسمّيه باومن بـ "الفرديَّة الجديدَة" وانهيار الرَّوَابط الإنسانيَّة، وأفول / انهيار التَّكامُل. فيُظهر المعالَم الضبابيَّة واللاّيقينيَّة في الروابط والعلاقات الإنسانيَّة (باومان، الأزمنة السّائلة العيش في اللايقين، 2017.، صفحة 47). والأبعد من ذلك، أنَّ الحداثَة السائلَة لم تبقَى مُجرد أنموذج للعيش، بل تجرأ هذا الأنموذج الحداثي على التَّسلُّل إلى الوعي والخيارات الشّخصيّة. وأصبح أقصى ما يحاول المرء الحُصُول عليه هو اللذَّة والنَّشوَة الماتِعَة. فتُرغمُه على الدُّخُول في عالم الصِّلات العابرَة .(باومن، 2016، صفحة 18)

يبدو جليًّا مَدَى الأثَر العميق الذي جسَّده منطق السيُولَة في المجتمع الحداثي والوعي الإنساني، فيكشف عن صِيَغٍ جديدة لضبط الروابط الاجتماعيَّة، صيغ مَبنِيّة على النشوَة الجنسيّة العابرة، ويتمحور التفكير حول الذات الفرديَّة .

ويظهر الحبّ والصّداقَة، وغيرهما من العلاقَات والرَّوابط الإنسانيَّة مفكَّكَة بفعل الحداثَة السَّائلَة. ومن ثمَّ، تهديم بُنيان الأسرَة وذلك بتفكيك عمليات التَّحديث التي تنبني عليها الأسرة الممتدَّة في المجتمع الصّناعي عن طريق فكّ الارتباط بين أربعة مكوّنات للأسرة هي: الحبّ (العاطفَة)؛ والجنس (المتعَة)؛ والإنجاب (الذَّريَّة)؛ والرِّعايَة (المودَّة والرَّحمَة). وتحويل كل منها إلى سلعَة يُمكن تسويقُها لخدمة الدَّولة والسّوق وليس خدمةً للمجتمع، ولك أن تتجوَّل في شوارع أوروبا –اليوم– لتشاهدَ إعلانات تحاول دائمًا أن تصُوغ حياتك بنمط العرض والطّلب، فيُقال لك عبر إعلانات يوميَّة « قابل حلم حياتك ودعنا نُرتّب لك لقاءً مع شريك حياتك؛ أحصُل على الطّفل الذي تريد (بُنُوك الحيوانات المنويَّة، واستئجار الأرحام)؛ إجهاض ورعاية صحيَّة فائقَة (باومن، 2016، صفحة 20) ».

حاصل القول في العلاقات الإنسانية ضمن حياة السّيولَة أنَّها تكون مزعزعة ومفكّكة من قيَمهَا القائمَة أساسًا على الحبّ، الاحترام، والصَّداقَة؛ وتُستبدَل هذه القيم بقيم افتراضيّة تتوافق مع أنموذج الحياة الحديثَة السَّائلَة. وهذه العلاقات الافتراضيّة –على عكس العلاقات الواقعيّة الثّابتة والصّلبَة– يسهُل الدخُول فيها والخروج منها لأنها سهلة، مُقارنَة بالعلاقات الواقعيَّة الثقيلَة نوعًا ما. منطق

العلاقات الافتراضيَّة هو السيولَة والحَركة الدَّائبَة. والأهمّ من ذلك، تفشِّي اللايقين والارتباك المقيت وملازمتهما المرء فيُسهّل عليه فك الارتباط وإنهاء العلاقة متى دعَت الحاجَة إلى ذلك .(باومن، 2016، صفحة 33)

يمكننا القول فعلا، أنَّ المجتمع الحديث، بما فيه الإنسان، يستمرّان في الذَّوبَان ضمن الأنموذج الذي تفرضه الحدَاثَة السَّائلَة، هذا البراديغم التي أفرزَ أنماطًا مختلفَة مبنيَّة على المخاطر والعيش في اللاّيقين، التَّجمُّع المنفصل في عالمٍ حديث سائل. يكون فيه المرء مُنصَهِرًا في حالة السيولة والتغيير الدَّائم.

خاتمة:

يمكن القول في نهاية المطاف بعد هذا التحليل، أنَّ الحداثَة حادَت عن مسارهَا بذاك القدَر الذي جعلهَا تنقلب عكسيًّا لكل ما بشَّرت وتفاءَلت به، فارتَّدَّ التَّقدم إلى استهلاك محموم، يُفرض على الإنسان المعاصر من خلال فرض السوق والبضاعَة؛ وانقلبت الحريَّة إلى مزيد من أشكال السّيطرَة والرَّقابَة الاجتماعيَّة والمؤسّساتيَّة على الإنسان؛ وتحوَّلت العقلانيَّة إلى أداة لفرض وتشريع السّيطَرَة .

ولعلَّ الحالَة المُزريَّة التي آلت إليها الحدَاثَة، جعل الكثير من الفلاسفَة وعلماء الاجتماع ينقضُّون عليها نقدا وتقويمًا، والحداثَة السَّائلَة ليس سوى وصف وتشخيص لحالة التَّحوُّل الذي ظهرت عليه الحداثَة بانتقالها من عصر الصَّلابَة إلى أنموذج السُّيوُلَة، هذا الأخير أفرز، بل فرض حياةً أخرى مُختلفة عما حملَته الحداثَة من قِيمِ وتفاؤُلات عصر الأنوار، إذ تحوَّلَّت الحياة إلى استهلاك مُتواصل ومائع، عبر تتبُّع الأسواق، والسِّلع، وتزايُد طلبات المُوضَة، كل ذلك أنتج إنسانًا ذو بُعد واحِد، إنسان مادِّي يسعى فقط لإشباعِ رغباتهِ. والأكثَر من ذلك، أنَّ هذا التَّحوُّل المُلازِم للحدَاثَة استهدَف، أيضًا، الذَّات الإنسانيَّة والرَّوابط الاجتماعيَّة، من حيث هي المُشرّع الأوَّل لتأسيس العلاقات، فتحوَّلت هذه العلاقات، بفعل براديغم السُّيولَة، إلى مجرد علاقَات عابرَة افتراضيَّة قائمة على التغيير والصَّيرورَة وكسرٍ للعلاقات الواقعيَّة والصَّلبة، وفي خضَمّ هذا الاتِّصال الافتراضي تكون أقصى اهتمامات الإنسان هو اللَّذَة والآنيَّة والمُتعَة الجنسيَّة.

لهذا، بات لِزَامًا على الإنسان – وقبلَ فَوات الأوان– أو يُراجع الأُطُر والمُرتكزَات التي قَامَت عليها الحَدَاثَة، ومن ثَمَّ، مُراجَعَة القيم الدَّنيئَة التي أفرزَها التَّحوُّل الحدَاثي المُتمثَّل في فرض نمط و/أو منطق السُّيُولَة. وإنَّه لمنَ المؤسِف فعلاً أن يظهر الإنسان بهذه الصُّورَة في زمن تحوّل الأشياء

وسيطرة الاستهلاك وتعليب و/ أو هَندَسَة العُقُول عبر شَاشَات الإعلام والإشهار بما يتواءَم ومنطق السّلطَة. في السيطرَة والمراقَبَة فيتحوَّل الفرد في المجتمع الحديث السَّائل إلى مُجرد مُستقبِل للمعلُومات مُستهلكٍ لهَا، تمَامًا كمَا يستهلك السّلع التي تفرضها السّوق.

قائمة المراجع:

1. الرحمن ,ط .ع .(2007) .*الحداثَة والمقاومة* .معهد المعارف الحكميّة .
2. الكور ,ع .ا .(2013) .*الإسلام يُسائل الحداثَة* .لندن : .عالم الكتب الحديث اربد.
3. المسيري ,ع .ا .(2009) .*العلمانيّة والحداثة والعولمة* .بيروت :دار الفكر المعاصر.
4. النقاري ,ح .(2018) .*مفاهيم التفلسف الغربي، معجم تحليلي عربي*، .بيروت : .المؤسسة العربية للفكر والإبداع .
5. باومان ,ز .(2013) .*الحرية*) .ت .ف .خليفة (.Trad ,القاهرة :مكتبة مدبولي.
6. باومان ,ز .(2016) .*الحداثة السائلة*) .ت .ح .جبر (.Trad ,بيروت :الشبكة العربيّة للأبحاث.
7. باومان ,ز .(2016) .*الحياة السّائلَة*) .ت .ح .جبر (.Trad ,بيروت :الشبكة العربيّة للأبحاث.
8. باومان ,ز .(.2017) .*الأزمنة السّائلة العيش في اللايقين*) .ت .ح .جبر (.Trad ,بيروت :الشبكة العربية للأبحاث.
9. باومان ,ز .(.2017) .*الخوف السَّائل*) .ت .ح .جبَر (.Trad ,بيروت :الشبكة العربية للأبحاث.
10. باومن ,ز .(2016) .*الحب السائل*) .ت .ح .جبر (.Trad ,بيروت :الشبكة العربية للأبحاث.
11. بومنير ,ك .(2010) .*جدل العقلانيّة في النّظرية النّقدية لمدرسة فرانكفورت* .الجزائر :منشورات الاختلاف.
12. تودوروف ,ت .(2007) .*روح الأنوار*) .ت .ح .قويعَة (.Trad ,تونس :دار مُحَّد علي.
13. تورين ,آ .(1998) .*نقد الحداثة*) .أ .مغيث (.Trad ,الكويت.19 :
14. تورين ,آ .(2020) .*من أجل علم الاجتماع*) .ت .ع .اللاوي (.Trad ,الجزائر :ابن النّديم للنشر والتوزيع.
15. ديكارت ,ر .(1991) .*مقالة في الطريقَة*) .ت .ج .صليبا (.Trad ,الجزائر :دار موفم.
16. كانط ,إ .(2005) .*ثلاثة نصوص تأملات في لتربية ما هي الأنوار ما التّوجه في التّفكير*) .ت .م .جماعة , (.Tradتونس :دار مُحَّد علي للنشر.